المجلة الجزائرية للمخطوطات المجلد 09 / عدد خاص ديسمبر 2013، ص 07– 24

منهج المتقدمين في طلب العلم بالمغرب الأوسط

(الإمام محمد بن عمر الهواري أنموذجا)

Approach of the applicants in seeking knowledge in the Middle Maghreb: Imam Muhammad bin Omar al-Hawari as a model

سياب خيرة*

جامعة بشار (الجزائر)،

ملخص:

لقد اعتبرت بعض الحواضر ببلاد المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة دار هجرة لطلب العلم من قبل رجال الفكر والأدب، فشكلت بجاية وتلمسان وقسنطينة وتهرت وفاس والقيروان ديار علم وأدب ومعاهد لتحفيظ القرآن وتعلم اللغة العربية وغيرها من العلوم بحسب تخصص الطالب. ولذلك نجد سيدي الهواري يمتطي فرس طريق العلم بدأ بهذه الحواضر فكانت بجاية دار مقصده في صقل مواهبه قال محقق كتابه السهو في الصلاة:" حفظ القرآن وهو دون العشر من السنين. ثم أقبل على طلب العلم والعبادة، وكان مبدأ قراءته بمدينة بجاية على أعلامها الجلة منهم الإمامين عبد الرحمن الوغليسي، وأحمد بن إدريس، فأقام بها مدة أعوام مواصلا الجد والاجتهاد في قراءة العلوم المنقول منها والمفهوم، واستظهر هناك الكثير من حفظ الكتب.

الكلمات المفتاحية: الهواري ؛ التصوف ؛ الوغليسي؛ المغرب الأوسط، المشرق

Abstract:

Some metropolitans in the Islamic Maghreb in general and the Middle Maghreb in particular were considered a home of immigration to seek knowledge by men of thought and literature, so Bejaia, Tlemcen, Constantine, Thart, Fez and Kairouan were formed as homes of science and literature and institutes for memorizing the Qur'an and learning the Arabic language and other sciences according to the student's specialty. Therefore,

*المؤلف المرسل

we find my master El-Hawari riding a horse on the path of knowledge. He started with these metropolises, and Bejaia was the house of his purpose in refining his talents. The investigator of his book of forgetfulness in prayer said: “Memorizing the Qur’an when it is less than ten years. Then he accepted to seek knowledge and worship. The two imams, Abd al-Rahman al-Waghlisi, and Ahmad ibn Idris, lived there for years, continuing hard and diligent in reading the sciences transmitted from them and the concept, and memorized many books there.

مفهوم طلب العلم:

العلم لغة:"العلم: نقيض الجهل، عَلِمَ عِلْمًا وعَلُمَ هو نفسه، ورجل عالم وعليم من قوم عُلماء فيهما جميعا...وعَلّمَهُ العِلْمَ وأَعْلَمَهُ إياه فَتَعَلَّمَهُ، وفرق سيبويه بينهما فقال: عَلِمْتُ كأذِنت، وأعلمتُ كآذنت، وعَلَّمته الشيء فَتَعَلَّمَ، وليس التشديد هنا للتكثير".[1]

اصطلاحًا: قال بعض أهل العلم هو المعرفة، وهو ضد الجهل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:" إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنمَّا ورثوا العلم، فمن أخذه أَخَذَ بحظ وافر"[2]، وإنّ أول آداب طالب العلم الإخلاص لأنّ الإخلاص أساسه، فعلى طالب العلم أن ينوي بطلب العلم امتثال أمر الله وبذل المنفعة للناس صغارهم وكبارهم وذلك برفع الجهل عن نفسه وعن غيره لأن الأصل في الإنسان الجهل وقد ذكر الإمام أحمد- رحمه الله تعالى-: "العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته"، بل اشترط أهل العلم أن يكون صدر طالب العلم رحباً في مواطن الخلاف الذي مصدره الاجتهاد.

-حفظ القران الكريم في سن مبكر لدى العلماء المتقدمين:

لقد بدأ سيدي الهواري العلم في سن مبكرة مبتدئا في تعلمه بحفظ القرآن الكريم في أقل من عشر سنوات، ولا ريب فحفظ القرآن يكسب صاحبه هيبة ووقار قال الشافعي رحمه الله: "من تعلم القرآن عظمت قيمته".[3]

وقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظمون الحافظ ولو لجزء يسير منه، قال أنس رضي الله عنه: "كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا" بل كانوا رضي الله عنهم يتنادون يوم اليمامة بينهم "يا أصحاب سورة البقرة.[4]

إن التدرج في طلب العلم والالتزام بصفة طالبه لا محالة يرفع صاحبه ويترك له أثر بين أفراد مجتمعه ولو بعد حين، فعن يونس بن يزيد قال: قال لي ابن شهاب:" يا يونس لا تكابر العلم، فإن العلم أودية فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام".[5]

لقد بدأ سيدي الهواري يحفظ القرآن كما ذكرت سابقا وقد كان ذلك ما يعمد غالبية العلماء المتقدمين فعله، وقد أكد هذا الطريق الذهبي من خلال ما قاله في السير عن شيخ الحرم الإمام عبد الملك بن جريج رحمه الله: قال: أتيت عطاء –يعني ابن أبي رباح–وأنا أريد هذا الشأن– أي طلب العلم– وعنده عبد الله بن عمير، فقال لي ابن عمير: أقرأت القرآن؟ قلت: لا فقال: اذهب فاقرأه، ثم اطلب العلم، فغبرت زمانا حتى قرأت القرآن.[6]

وكأن بشيخنا سيدي الهواري لا يريد إلا أن يمتطي طريق سابقيه بالحفظ أولا ثم الخوض في بحر العلوم مما تيسر له رحمه الله، ومّما ميّز طريق العلم لدى الشيخ عمر الهواري هو إتباع طريق التصوف على غرار العديد من علماء عصره، حيث يبدو أنّ ظاهرة التصوف كانت غاية لدى طالبي العلم خاصة في كونها تكسب صاحبها صفة الابتعاد عن المحرم، والخوض في المعرفة بالعلم بدأ بالعلوم الشرعية ثم التبحر في العلوم الأخرى. وقد ذكر في هذا الصدد ابن عجيبة وكان معدودا على الصوفية في اتجاهه، حيث كان يرى في التصوف أنه يعتبر سياحة للفقير في بدايته لأن السفر يسفر عن العيوب ويطهر النفوس ويوسع الأخلاق، وبه تتسع معرفة الملك الخلاق لأنّ المسافر كل يوم كان يشاهد تجليا جديدا ويلقى وجوها لا يعرفها ولا يأنس بها، فتتسع معرفته بذلك[7]وهذا ما جعل منه سيدي الهواري طريقا له، حيث ذكر محقق كتابه الموسوم "بالسهو" قوله عن شيخنا:" كان هذا الولي سيدي محمد الهواري رحمه الله آية من آيات الله

في ذلك الزمان، وشيخ مشايخه في المقامات والعرفان، سبقت له من الله العناية، فجمع بين العلم والولاية ورقاه في درجات التقوى إلى الغاية".[8]

طلب العلم بدأ بالحواضر الداخلية عند العلماء المتقدمين:

لقد اعتبرت بعض الحواضر ببلاد المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة دار هجرة لطلب العلم من قبل رجال الفكر والأدب، فشكلت بجاية وتلمسان وقسنطينة وتهرت وفاس والقيروان ديار علم وأدب ومعاهد لتحفيظ القرآن وتعلم اللغة العربية وغيرها من العلوم بحسب تخصص الطالب. ولذلك نجد سيدي الهواري يمتطي فرس طريق العلم بدأ بهذه الحواضر فكانت بجاية دار مقصده في صقل مواهبه قال محقق كتابه السهو في الصلاة:" حفظ القرآن وهو دون العشر من السنين. ثم أقبل على طلب العلم والعبادة، وكان مبدأ قراءته بمدينة بجاية على أعلامها الجلة منهم الإمامين عبد الرحمن الوغليسي، وأحمد بن إدريس، فأقام بها مدة أعوام مواصلا الجد والاجتهاد في قراءة العلوم المنقول منها والمفهوم، واستظهر هناك الكثير من حفظ الكتب قل أن يحفظها غيره".[9]

ولم يكن اختيار سيدي الهواري لبجاية فيما يبدو عفويا فقد تخرج من بجاية أعلام كثيرون في الفقه والأدب والطب والرياضيات وغيرها.[10]

وفي إطار الترجمة لأبي علي المسيلي الذي درس في بجاية وولي القضاء بها وجمع بين العلم والعمل...أشار الغبريني إلى حجم العلماء المجتهدين الذين قاموا على حل المسائل الشرعية الدقيقة. فأورد قولا لهذا الأخير (أبي علي المسيلي) جاء فيه:" أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا".

لقد كانت بجاية وحدها ناهيك عن الحواضر الداخلة في بلاد المغرب الأوسط وفي وقت فاق الأربعة قرون قبلة العلماء ومهبطا لأفئدة طالبي العلم وساحة لتبادل الأفكار والآراء وميدانا للإبداع العلمي، حيث راجت حركة نشطة للتأليف في الفقه والتاريخ والرياضيات وفي مختلف الفنون...حتى قال بعض المؤرخين:

" أن الفرنسيين عندما غزو بجاية استولوا على حمولة اثنا عشر سفينة من الكتب القيمة جمعت من مدارس بجاية ومساجدها قيل إنها غرقت كلها في البحر..."[11]

لقد أوردنا هذه الإشارة لنوضح للطلاب مدى إدراك طلبة العلم القدماء لقيمة الحواضر الداخلية بمعنى حواضر الوطن الأم، وبعد الارتواء من مشاربها كانت تشد الرحال لغيرها مغربا ومشرقا.

وبذلك نلاحظ أن سيدي الهواري لم يغادر بلاد المنشأ إلا بعد أن تكون في حفظ القرآن وبعض العلوم، حيث زود نفسه حتى يستطيع خوض المباراة سواء في فاس أو في المشرق قال المحقق:".. واستظهر هنالك حفظ كثير من الكتب قل أن يحفظها غيره...ثم لما أخذ في درس البرادعية وبلغ فيها كتاب الصيد سافر مغربا لمدينة فاس، فأخذ بها عن الشيخ الإمام حافظ المغرب موسى العبدوسي، وعن زعيم الفقهاء والمتكلمين أحمد القباب، فأقام للقراءة عليهما جملة من أعوام وقد كان معروفا عن أهلها بالعلم والديانة.. وبهذه الحاضرة المغربية يقول المحقق كمل حفظ المدونة وهو حينئذ ابن خمس وعشرين سنة..776هـ.[12]

لقد استطاع سيدي الهواري وعن طريق هذا المنهج الذي سلكه أن يهيأ الزاد وأن يصقل الموهبة التي من شأنها يصبح له نظر في عيون المتعلمة من طلبة العلم، ما جعل جانبه يؤتمن في مجال المشيخة في فاس فكان يقول محقق كتاب السهو في الصلاة أن طلبه طلبتها لمنصب مشيختهم:".. كان طلبة فاس يقرؤون القرآن وكتب اللغة العربية والفقه ويتحدثون أنهم ما رأوا أبرك ولا أفيد من تعليمه".[13]

إن هذا الرجل تخرج من بجاية أولا في بلد المنشأ حيث كان يطلب العلم بها من قبل آلاف الطلاب الذين كان من ضمنهم نساء كثر تعلمن مختلف العلوم وكأن جامعة سيدي التواتي ضاهت بشهرتها جامعات اليوم، ذكر أحد الباحثين أن زاوية "سيدي التواتي ببجاية آنذاك كان يؤمها في يوم من أيام بجاية ثلاث آلاف طالب منهم خمس مائة طالبة ويقال إن إحداهن أوفدت مؤتمر علمي فألقت محاضرة امتدت ثلاثة أيام وكان موضوعها حول علم الفلك والحساب الرياضي...."[14].

الرحلة لصقل الموهبة العلمية خارج بلد المنشأ غربا وشرقا عند العلماء المتقدمين

إن" العلم لا يؤتى بمجرد قراءته أو حفظه، بل لا بد من المناقشة والمناظرة في مواضعه وذلك بارتياد المجالس العلمية والمحافل الأدبية وبحضور مشاهير المعلمين من العلماء والحكماء وأصحاب التجارب الحياتية حتى تحصل الملكة العلمية... حتى قال ابن خلدون: " عليك بمجالسة أصحاب التجارب".[15]

إن الرحلة خارج الديار لطلب العلم حينما يسمع بصيت أبنائها (الديار الخارجية) في مجالات العلوم والفقه والهندسة...حيث غالبا ما كانت الرحلة ذات مقصد يتمثل عموما في إفادة القراء وتثقيفهم بالجديد، وتعريفهم بتاريخ البلدان وحضارتها وشعوبها وأبرز معالمها وعجائبها وعاداتها وتقاليدها.

لقد" كان للعامل الديني أثر كبير لجلّ الذين قصدوا المشرق الإسلامي لزيارة الأماكن المقدسة، مما حتّم لاشك زيارة المدينة المنورة ومن ثم المسجد الأقصى وبذلك يعد الحج من أبرز الوشائح التي ربطت بين المشرق والمغرب، وعملت على توحيد الثقافة في سائر أنحاء البلاد الإسلامية على الرغم من المسافات الشاسعة التي تفصلها عن الحجاز، ولم تكن هذه المسافات لتمنع (المغربي) من الوصول إلى هذه البلاد.[16]

يقول أحد الباحثين مما دفع ابن جبير "للخروج في الرحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة وسماع العلماء..."[17]وقد كان طلب العلم مطلبا أساسيا عند عدد كثير من الرحالة.

لقد توجه الشيخ على طريقة علماء عصره إلى المغرب فحط الرحال في فاس وكانت آنذاك مركز إشعاع علمي وهناك انظمّ إلى حلقة الشّيخ العبدوسي[18] والشيخ

القباب وغيرهما من الشيوخ الذين لا نعرف عنهم شيء كما الح به أحد الباحثين.[19]

وعندما حصل على ما أراد في فاس فكر الإمام عمر الهواري في مغادرتها بالرحلة إلى المشرق العربي مرور ببجاية، حيث زار أصدقاءه وأساتذته أيام طلب العلم، ثم تونس، وليبيا، ثم القاهرة ليستقرّ في جامعها الأزهر، فما لبث أن انضمّ – كعادته في أيّ مدينة علم زارها – إلى حلقة التدريس ليغرف من علوم الأزهر المختلفة، ويتتلمذ على فطاحل الأساتذة هناك أمثال الشيخ الحافظ العراقي.[20]

طلب العلم وتنويع مصادره:

يقول ميمون بن مهران في بيان حقيقة أهل العلم:" إنهم كالماء العذب " أي أن الناس يردون إليه.

لقد بذل العلماء المتقدمون في سبيل التعلم من المشقة ما لا يمكن أن يتصوره طالب العلم في العصر الحالي فقط من أجل أن يوصلوا الحقائق، وينشروا المعرفة بين الأفراد من مختلف الفنون، قال أبو أحمد نصر بن أحمد العياضي الفقيه السمرقندي:" لا ينال هذا العلم إلا من عطّل دكانه وخرّب بستانه وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله إليه فلم يشهد جنازته"[21]بل جاء عن ابن القاسم رحمه الله أنه:" أفضى بمالك بن أنس رحمه الله طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه"[22]أما خلف بن هشام رحمه الله فقال في شأن المشقة التي يجب بذل الجهد من خلالها لأجل أخذ العلوم:" أشكل علي باب في النحو فأنفقت ثمانين ألف درهم حتى حذقته".[23]

لم يحد عمر الهواري عن النهج الذي رسمه أسلافه في الإحاطة بما استطاع الوصول إليه من العلوم فأوّل ما قام به كما ذكر سلفا هو:

-أنه حفظ القرآن في سن العاشرة.

-أكمل حفظ المدونة في السادس والعشرين من عمره سنة 776هـ.

- نظم كتابه السهو في هذه السنة حول أحكام الطهارة حيث يعد من أجمع الكتب في أحكام وسائل الطهارة والصلاة.

لقد جلس الشيخ عمر الهواري بعد رجوعه من المشرق لنشر العلم فانتفع الناس بذلك، حيث يبدو تمكنه من خلال ما جاء في المنظومة على أنه حافظ لعلوم شتى ومتقن لما احتوته، ما جعله يجلس للدرس بعد العودة إلى الديار ومن ضمن ما كان متمكن منه حسب المحقق:

-الشاطبية.

-الألفية.

-عدد من الكراريس (الكناشات) والتي كانت تشتمل على علوم القرآن الكريم: فيما يتعلق بالكتابة والأداء والنحو واللغة.

-معرفته بكتاب ابن عطية في التفسير.

-معرفته بالتفسير الكبير للإمام فخر الدين بن الخطيب.

-معرفته بعلم الفقه حافظا له متصدر للقيام على غوامضه.

-أخذ عنه في الفتوى نظرا لتبحره في المعرفة بمذهب الإمام مالك حتى وصف أنه تفرد في حفظه بما لا ينافسه أحد من أبناء عصره.[24]

-كان متمكن من علم الخلاف حسبما جاء في كتابه التبيان حيث كان يحفظ رسالة ابن أبي زيد وشرحها للقاضي عبد الوهاب.

-ومما حفظ المدونة المسماة بالتهذيب.

-حفظ كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب.

-حفظ جامع الأمهات لابن الحاجب.

-أتم قراءة شرح ابن عبد السلام.

-كان من محفوظاته رحمه الله كتاب الإرشاد في علوم الاعتقاد لأبي المعالي إمام الحرمين.

وبذلك يبدو أن الشيخ كان مداوما على طلب العلم مكثرا من تعلمه وتعليمه حيث لم يأخذه في طلب العلم وتعليمه الكبرياء، فكان مكثرا للطاعات مداوما زاهدا في حياته.

نهج في الدعوة إلى الدين طريقين:

أولا:طريق الترهيب من عاقبة المخالف لما أقره الله سبحانه وتعالى خاصة لما يجد في مجلسه من أرباب الأعمال والأغنياء.

ثانيا:طريق التقريب ببيان رحمته عز وجل بعباده كيف لا وهو الذي سمى نفسه بالرحمن الرحيم خاصة في حضرة ووجود الفقراء والمساكين.

ولذلك فكثير ما كانت القلوب تنفعل لكلامه الذي كان يصل إليها بفعل تأثيره عليها.

التعليم في البلد الذي زاره بطلب من أهله:

لم أجد فيما اطلعت عليه حول الشيخ كتابات ضافية حول تقدم الشيخ عمر الهواري للتدريس بالأماكن التي زارها إلا ما استنتجه الدكتور المختار بوعناني في مقال له، حيث أوضح هذه المسألة استنادا فيما يبدو من تنوع مصادر ثقافة الشيخ عمر الهواري وكثافتها بالإضافة إلى تنقلاته للالتحاق بحلقات الدروس في البلدان التي زارها مغربا ومشرقا وذلك من خلال ما صرح به الباحث الذي اطلع على مخطوط السهو وقام بشرحه شرحا مطولا، حيث من ضمن ما وقف عنده هو مسألة تولي الشيخ محمد الهواري للتعليم في كثير من البلدان إذ لاشك أن طلبته عدو بالكثرة فقال:"إن الإمام لم يكتف بزيارة المسجد الأقصى، بل انضمّ إلى حلقات التدريس التي تقام هناك وبعد اطلاعه على ما يدور في هذه الحلقات من علوم شتّى كوّن لنفسه حلقة خاصّة به يلقي فيها دروسا في علوم الدين والدنيا على العامّة والخاصّة، وسرعان ما كثر طلبته، واشتهر بينهم، لما وجدوا في دروسه معارف لم يطلعوا عليها قبل هذا العالم القادم من بلاد الشمال الإفريقي أقصى العالم العربي".[25]

ولما "توجه الإمام إلى بلاد الشام ليستقرّ فيها وبالذات في مدينة دمشق وفي مسجدها الأموي بخاصّة انضمّ كعادته إلى حلقات العلم ليغترف من العلوم المختلفة التي تُدرّس هناك. ولم يلبث كعادته في أيّ بلد حلّ به أن كوّن لنفسه داخل المسجد الأموي حلقة درس للطلبة المتعطشين إلى علم الغرباء، وبخاصة علماء الشمال الإفريقي".[26]

العودة إلى البلد الأصلي لنفع الأبناء بما اكتسبه العالم في رحلته:

لم تخلو مجالس الشيخ من النفع العام سواء كان ذلك بما يدار من محاضرات أدبية أو علمية، أو صوفية بحكم توجه الشيخ سيدي الهواري.

يشير المحقق لكتاب السهو أنه لا شك أن هناك وفود على مجلسه من المدن والقرى المجاورة لوهران، حيث كانت تعرض عليه مسائل حتى يستفتيهم فيها لما ذاع صيته بما حصل عنده من علم وافر دلت عليه رحلته مشرقا ومغربا وبلغه من جمعه لعدد من العلوم في صدره وهذا ما يؤكده المحقق بقوله:" كان سيدي الهواري يحفظ ما قرأه وحصله فكان لا يفتقر في مجالسه العلمية وتواليفه في الفقه والمناسك والآداب إلى مطالعة كتاب ولا مراجعة شيء لإحاطته بجميع العلوم.[27] المنقول والمفهوم وهذا ما درج عليه غالبية العلماء المتبحرين في العلوم حتى قال محمد بن يونس رحمه الله:" كتبت بالبصرة عن ألف ومائة وستة وثمانين رجلا".[28]

وفي رواية طريفة لابن المقرئ رحمه الله:" مشيت بسبب نسخة مفضل بن فضالة سبعين مرحلة ولو عرضت على خباز برغيف لم يقبلها".[29]

حينا رجع الإمام من الرحلة يشير صاحب أعلام الفكر أن عمر الهواري زار أهله وقريته في هوارة القرية التي تربى فيها، كما زار أصدقاءه وأساتذته سواء في بلدته أم في القرى المجاورة، إلا أنه ما لبث أن شدّ الرحال مرة أخرى إلى مدينة تلمسان فجاور فيها ضريح سيدي بومدين الغوث شعيب بن الحسن الأندلسي[30] غير أنّ الإمام فضّل الاستقرار في مدينة وهران على غيرها من المدن، فأسّس فيها الزاوية التي كانت نواة المدرسة الهوارية فتمّ له ما أراد، حيث تكون فيها جيل من الطلبة كان أبرز ثمارها إبراهيم التازي الذي سار على خطى الشيخ فأضافت لوهران مؤسسة ضاهت مؤسسة شيخه في العطاء العلمي.

لقد نهج عمر الهواري في التحصيل العلمي نهجين:

النهج الأول: حرص من خلاله على عدم قطع الصلة بالتعليم وهذا يجعل المتابع لشأن الشيخ الهواري يرى فيه ذلك الباحث المستمر في طلب العلم أين وجده.

النهج الثاني: تمثل في نشر العلم بين الناس أين حل وارتحل وقد تميز عمر الهواري عن غيره بل قد يكون تفرد بقضية هامة وهي التفكير في فئة الصغار والعوام ممن ليس لهم زاد علمي، خاصة فيما تعلق بأمورهم الدينية فكتب لهذه الفئة بلغة يسيرة سلسة، فتعليم الأطفال وتنشئتهم على الاعتقاد الصحيح هو

سبب حماية الأمة من الزيغ والضلال، ولذلك لما قال رجل للأعمش (رحمه الله) هؤلاء الغلمان حولك ؟! قال: اسكت هؤلاء يحفظون عليك أمر دينك[31]. وقد جاء في مقدمة كتابه تعليم الصبيان التوحيد حيث قال الإمام محمد بن عبد الوهاب:" فهذه رسالة نافعة فيما يجب على الإنسان أن يعلم الصبيان قبل تعلمهم القرآن[32]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه"[33]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك"[34]. وعن معاذ رضي الله عنه قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات قال:"...وأنفق على عيالك من طولك ولا ترفع عنهم عصاك أدبا وأخفهم في الله"[35]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من ربى صغيرا حتى يقول لا إله إلا الله لم يحاسبه الله".[36]

ولعل الشيخ الهواري ومن خلال اطلاعه الواسع وجد أن تعليم الصغار مطلوب وكأنه استشرف الحاضر فعول على النزول إلى هذه الفئة من خلال كتابه السهو ثم التنبيه والذي من خلاله شرح الكتاب الأول، حيث تعكس أفكار الكتاب رغم بساطتها، عمق التفكير لدى العلماء المتقدمين في قضايا أمهم وبما يعود بالنفع العام على المجتمع. لقد كان هذا التوجه لدى عمر الهواري بالتركيز على هذا القسم أساس المدرسة الهوارية واستمرارها حتى لا تزول بزواله، وهو ما كان بالفعل حيث كان يريد أن يرقى حسب بعض الباحثين إلى مستوى مدرسة بجاية ولما لا مدرسة فاس والأزهر وغيرها.

لقد بلغ عمر الهواري فعلا ما أراد من خلال أبرز تلامذته الذين بلغوا مبلغ الانتقاد له هو نفسه، حيث يحيلنا صاحب أعلام الفكر إلى تلميذ لعمر الهوا ري يدعى أبو زيد عبد الرحمان مقلاش، والذي وصل إلى مستوى جعله ينتقد كتاب شيخه عمر الهواري ويقوم بتصحيحه[37]، بل شدت الرحال للدرس في مجلسه من أماكن قريبة وبعيدة لما يبدو لما ذاع صوته. فكان من ثماره منافسة أحد تلامذته له وقد جاء من المغرب فتعلم على يديه حتى صارت له زاوية يقصدها الناس على غرار زاوية الشيخ الهواري حسبما يحدّثنا به صاحب كتاب تعريف الخلف[38] عن المستوى الذي بلغه إبراهيم التازي (866هـ)،

والذي أهله إلى مرتبة المشيخة سواء في التعليم أو العلم الذي تمكن منه بفضل مجاورة الشيخ عمر الهواري، وغيرهم يبدو كثير نظرا لتأسيس الزاوية الوهرانية أولا والإلمام بالعلوم من مضانها المختلفة بترحاله مغربا ومشرقا وطول المدة التي خصصها للتعلم الذي ظل رهينة له حتى لدى بلوغه مرحلة المشيخة.

لقد عمد الشيخ بتبسيطه الكتابة للصغار أولا وقد يبدو أن منهجه هذا موجه كذلك لفئة العوام من الذين لا يتوفرون على مستوى من القراءة والكتابة وهذا توجه قلا ما انتبه مشايخ عصره إليه، وقد يكون للإمامة للناس دور في اطلاعه على حاجتهم إلى تبسيط علم الفرائض من أمور دينهم فنجد الشيخ عمر الهواري يولي اهتمامه بمختلف طبقات مجتمعه دراية بأحواله وما يجب تقديمه له، كما كان للأثر الصوفي الذي طبع حياة الشيخ على الإتباع من المريدين واضح من خلال حرسه في حث مريديه على القيام بما ينبغي على المتعلم فعله من عبادات حتى يكتمل عنده العلم.

لقد تصدر الشيخ للفتوى وهذا أمر يخص في مجمله قضايا المجتمع، ولا شك أن أمر الفتوى ليس بالأمر الهين على غير الجامع للعلوم، ومادام أن عمر الهواري تقدم للوقوف على قضايا عصره فذلك ينم عن معرفة بأمور الشرع من جهة والاطلاع على رصيد علمي يؤهل المفتي لهذا الشأن ما يجعله ثقة عند الناس من جهة ثانية.[39]

التأليف وبعض صفات العلماء المتقدمين:

لقد سجّلت لنا بعض الكتب القليلة التي اهتمت بحياة عمر الهواري بعض المآثر حول حياة الشيخ منها:

التأليف:

لقد ترك الشيخ محمد الهواري رحمه الله جملة من المؤلفات في شكل نظم بلسان العوام منها التنبيه والسهو المسمى أيضا ب:الموانس، وكتاب التبيان وكتاب تبصره السائل حسبما أورد محقق كتاب السهو في الصلاة،[40] حيث قد يتبادر للذهن قلة الكتابة عن الشيخ ولا ندري سببه لقلة الكتابة حول هذه المسألة.

بعض الصفات والكرامات:

لقدّ كان محمد بن عمر الهواري معدودا على طبقة المتصوفين ما جعل شخصه محاط ببعض الكرامات والصفات، حيث تجلت بعضها في سفر الشيخ الحسن أبركان حافيا راجلا من تلمسان إلى وهران لزيارة الإمام الهواري وفي ذلك إشارة إلى موقع الشيخ في مجال التصوف، وقد هدّأ الشيخ عمر الهواري الحاكم الزياني، حينا توجس من عزم السلطان الحفصي أبا فارس المتوكل الذي أراد غزو تلمسان على انه لن يصلها وسيهلك في طريقه إليها بإذن الله فكان ذلك بالفعل.

إن المطالع على سيرة محمد الهواري من خلال وصفه من قبل العلماء يلحظ لا محالة مجموعة من الصفات ألحقت بالشيخ، مما يؤكّد أن الرجل كان محل ثقة واسعة لدى العلماء والطلبة الذين التقى بهم ومن بين الصفات التي وصف بها:

1- صفات دلت على علمه الوافر "المثابر على العلم والصدق".

2- صفات دلت على أنّه من طبقة الصوفية "الزاهد في الدنيا وآية الله في فنونه ومكاشفاته ومقطوع بولايته".

3- صفات دلت على أنّه مطلع على العلوم الشرعية ما جعله يقصد للفتوى" المحافظ على حدود الشريعة والعارف بالله ".

4- صفات دلت على أنّه مطّلع على مختلف فنون المعرفة "صاحب العلوم الراقية وصاحب الأخلاق الطاهرة ".

الخاتمة:

لقد حاولت من خلال هذا البحث التركيز على نقاط أبرزها:

أولا: رسالة العلماء القدماء للمتعلمة في العصر الحاضر من خلال بذل الجهد والوقت لبلوغ مراتب العلم، حيث مثل الشيخ محمد الهواري أنموذجا لهؤلاء العلماء فقدم لهذا الجانب أغلب عمره من

سن العاشرة الى سن السبعين سنة، زار مختلف أنحاء بلاده، وبعدها رحل إلى المغرب ثم المشرق طلبا للمعرفة متشبّعا بقيم دينه ووطنه.

ثانيا: ألمحت من خلال ورقتي البحثية على أن الالتزام بالشريعة إلى درجة التصوف لم تثني علماءنا عن واجبهم اتجاه مجتمعاتهم والتفكير في قضاياهم وقد مثل الشيخ عمر الهواري أنموذجا مميزا لهؤلاء من خلال تسنمه وظائف متعددة(التدريس الفتوى–بناء مؤسسة تعليم يلتقي فيها بالطلبة والمتقاضين والمريدين وأصحاب المناظرات العلمية– التأليف...الخ).

ثالثا: اهتم الشيخ عمر الهواري على غير عادة العلماء في عصره بفئة الصغار والعوام حيث تمثل هذه الفئات غالبية أفراد المجتمع، فتخلى عن المنهج العام وبسّط العملية التعليمية بما يوصله للغاية.

رابعا: إن أهم نقطة يستفيدها الباحث من سير مثل الشيخ عمر الهواري هو سعة صدر طالب العلم.

خامسا: تبرز سيرة الشيخ عمر الهواري مدى إدراك طلبة العلم القدماء لقيمة الحواضر الداخلية بمعنى حواضر الوطن الأم. وبعد الارتواء من مشاربها كانت تشد الرحال لغيرها مغربا ومشرقا.

سادسا: أن وجود الزوايا المنتشرة بربوع وطننا بحاجة إلى إعادة النظر في تفعيل دورها الرائد في المجتمع، بعد أن أصبحت أماكن سياحية لممارسة أعمال قد لا تمتّ لما يخدم المجتمع بصلة، وقد ورد في متن هذا البحث كيف لعبت كل من زاوية سيدي الهواري وزاوية سيدي التواتي دورهما الفعال في المجتمع.

الهوامش:

1 –ابن منظور، دار صادر، بيروت، لسان العرب، ج12، ص ص 416 – 417 _ "مادة "علم.

2- الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة برقم:2682 وأبو داود/كتاب العلم/باب الحث على طلب العلم/برقم (3641)، وابن ماجه، في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (223).

3- أبو الفرج عبد الرحمان بن علة بن الجوزي، صفة الصفوة ت:خالد مصطفى طرطوسي، دار الكتاب العربي، ج2، ص.151

4- إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، تفسير ابن كثير، ت: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة 1999، ج1، ص47.

5- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ، جامع بيان العلم وفضله، ت:أبي الأشبال الزهيري، ط. أولى، دار ابن الجوزي، ج1، ص.351

6- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي أبو عبد الله شمس الدين، سير أعلام النبلاء،المحقق: شعيب الأرناؤوط، ج6،ص .35

7- ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت ت: إبراهيم رمضان، مؤسسة التراث الإسلامي، 2009، بيروت.

7- الأشعري ت910هـ في كتابه" روض النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين".

- عقيدة الإمام أبي عبد الله محمد بن عمر الهواري الوهراني 752-843هـ، ت: نزار حماد، ص19.

9- قال الشريف التلمساني، دخلت بجاية في القرن الثامن الهجري: فوجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذي ينبع من حيطانها، وقد سمعنا أن بجاية فيها خمسمائة صبية يحفظن المدونة أما اللاتي يحفظن الحاجب فلا يحصي عددهن إلا الله تعالى.

10- ينظر مقال لـ: محمد بن موسى الشريف، بجاية في الحضارة والتاريخ، 2007.

11- نزار حمّادي، عقيدة الإمام ابي عبد الله محمد بن عمر الهواري (751هـ-843هـ)، ص 10.

12- نفس المرجع، ص10.

13- ينظر مقال لـ: محمد بن موسى الشريف، بجاية في الحضارة والتاريخ الموقع المذكور السابق.

14- ابن خلدون، المقدمة، ص431.

15- ينظر: بلال سالم الهروط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة، 2008، ص28.

16- الشوابكة، نوال عبد الرحمن، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية ق9هـ، ط1، دار المأمون عمان، 2008، ص 28.

17-يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب بيروت، طبعة أولى، 1995ج2 ص 212.

18- أعلام الفكر، ج2، ص212.

19- المرجع نفسه، ص 212.

20 -أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ت:محمود الطحان، مكتبة المعارف 1989، ج2، ص174.

21- أبو بكر أحمد بن علي بْن ثابت بْن أَحْمَد بْن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ،تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية، بيروت،1417، ج2، ص13.

22- سير أعلام النبلاء، ج10، ص578.

23- ينظر: عقيدة الإمام أبي عبد الله محمد بن عمر الهواري الوهراني 752-843هـ، ت: نزار حماد

24-المختار بوعناني، مقال: عُمَر الهواري(843.750هـ،1439.1350م) وكتابه السهو، الموقع الالكتروني:

.http://urlzohra.blogspot.com/2008/05/7508

25-المختار بوعناني، نفس المرجع.

26- ترجمة الإمام محمد بن عمر الهواري، ص14.

27- الجامع لأخلاق الراوي وأداب السامع، ج2، ص221.

28- تذكرة الحفاظ، ج3، ص121.

29- أعلام الفكر والثقافة، 2، ص13.

30- أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغداديالمتوفى سنة 463هـ، ا لكفاية في علم الرواية،ت:ماهر ياسين الفحل، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، 1432 هـ، ص115.

31- الدكتور عبد العزيز آل عبد اللطيف في كتاب له بعنوان مقرر التوحيد.

32- صحيح البخاري ج1، ص456.

33- الترمذي ج5، ص59.

34- مسند أحمد بن حنبل ج5، ص238.

35- الطبراني، المعجم الأوسط. ت: طارق بن عوض الله، محسن الحسيني،دار الحرمين،1995.

36- أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج 2، ص 213.

37 - ينظر كتاب: الشيخ أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برحال السلف، طبعة نادرة، بمطبعة بيير فونتانة الشرقية في الجزائر،1906 ،ج1، ص 174.

38- ينظر في الدليل الخلف، ج1، ص 174.

39- ينظر في الدليل على هذا القول كتاب أعلام الفكر والثقافة في الجزائر، ج2، ص214.

40- نزار حمّادي، عقيدة الإمام ابي عبد الله محمد بن عمر الهواري (751هـ-843هـ)، ص 16.